طرائف من ادب العرب

(٣)

عمر الخيام وحجة الاسلام

« كان عمر الخيامي مع تبحره في علوم الحكمة سيئ الخلق لهُ ضنة بالتعليم والافادة . وربما طوّل الكلام في جواب ما يسئل عنهُ بذكر المقدمات البعيدة وايراد ما لا يتوقف المطلوب على ايرادهِ ضنة منهُ بالاسراع الى الجواب . دخل عليهِ حجة الاسلام الغزالي يوماً وسألهُ عن المرجّح لتعيين جزء من اجزاء الفلك للقبطية دون غيرهِ مع انهُ متشابه الاجزاء . فطوّل الخيامي الكلام والخوض في محلّ النزاع كما هو دأبهُ وامتدّ كلامهُ الى ان اذن الظهر فقال الغزالي جاء الحق وزهق الباطل وقام وخرج »

وعمر الخيامي او عمر الخيّام وهذه اشهر شاعر فارسيّ ومن اشهر اهل زمانهِ في الفلسفة والفلك والرياضيات . وقد نظم في العربية ايضاً ومن شعرهِ فيها قولهُ :

اذا رضيت نفسي بميسور بلغةٍ ... يحصلها بالكدّ كفي وساعدي
انت تصاريف الحوادث كلّها ... فكن يا زماني موعدي ومواعدي
أليس قضا الافلاك في دورها بان ... تعيد الى نحسٍ جميع المساعدِ
فيا نفس صبراً في مقيلك انما ... تخرّ ذراهُ بانقضاض التواعدِ

والف في العربية ايضاً من اشهر مؤلفاتهِ فيها كتابهُ في الجبر ومربّعاتهُ او رباعياتهُ الصوفية اشهر من ان تعرّف . قامت السيحكم يديا البريطانية في وصفها : رغم ان بعض رباعياتهِ صوفية فان معظمها افكار فكّر حرّ مستقلّ المفكر يرفع عقيرتهُ محتجّاً على ضيق صدر العلماء المحافظين وغلواء الصوفية المتطرفين . وقد قال هؤلاء بسلاحهم فلجأ الى الصوفية في شعرهِ للقضاء على الصوفية نفسها فطار بأوزارهِ اذ جعلها مضغة في الافواه ووقر في الاذان بتعريضها للتهكم والسخرية . وهو يشبه حافظاً (شاعر فارسي آخر مشهور) كلّ الشبه من هذا الوجه ولكنهُ اعلى كعباً منهُ وارفع مقاماً بلا خلاف . ولعلنا لقبهُ المتأخرون بفولتير الشرق لما رُمي بهِ من الالحاد والتعطيل والاخفاء زندقتهِ وراء ستار الصوفية . وعندنا انهُ يشبه فولتير من حيث سلامة دبلجتهِ وخرف مجونهِ وتهكمهُ القاتل لتعصب اهل زمانهِ وحسن انعطافهِ الى بني الناس عامة واحساسهُ بما يحسّون في مرّاتهم وضرّائهم . وهنا تنتهي

اوجه الشبه . فان فولتير الفيلسوف الفرنسوي الكبير لم يكتب شيئاً يوازي شعر عمر الحكيم وبيانهُ الساحر في مدح الخمر والحب وكل الملاذ الارضية وتبرمهُ من الاقدار التي قضت على كل عظيم وطيّب وجميل في هذا العالم بالاضمحلال البطيء او الموت السريع وبالنسيان الابدي . وتجدهُ في شعره ما تجد في شعر بيرون وسو يتبرت وشو بنهور من التطير والتشاؤم والنظر الى الوجه القاتم من هذه الحياة الدنيا مما يدلُّ على ان التشاؤم الحديث ليس ابن ساعتهِ ولا هو بدعة من بدع الفكر الفلسفي والخيال الشعري »

وقد عاش الخيام في اواخر القرن الحادي عشر واوائل الثاني عشر للمسيح وكان معاصراً لابي حامد الغزالي الملقب بحجة الاسلام والمعدود من اشهر علماء الكلام اي « الحجاج على العقائد الدينية بالادلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين عن مذاهب السلف » واشهر مؤلفاتهِ كتاب البسيط والوسيط والوجيز واحياء علوم الدين . وقد قيل في هذا الاخير « لو ذهبت كتب الاسلام وبقي الاحياء لاغنى عما ذهب » (١)

والمشهور عن لفظ اسمهِ انهُ بالزاي المشددة نسبة الى الغزل كأنهُ كان غزّالاً هو او ابوهُ او جدهُ قبل ابيهِ . ولكن السيكلوبيديا البريطانية نقلت اسمهُ بالزاي الخفيفة وقالت في وصفهِ « انهُ فيلسوف عربي من علماء الكلام ولد في طوس وهو سليل اسرة من غزالة (قرب طوس) اشتهرت بعلومها الدينية »(٢) . ثم ذكرت تعيين نظام الملك وزير السلطان ملك شاه السلجوقي اياهُ مدرساً في المدرسة النظامية ببغداد فكتب يطعن في الاسماعيلية المعروفين بالحشاشين (وفي الانكليزية assassins اي السفّاحين والاصل واحد) وذكرت تركهُ التدريس فيها بدعوى تكاثر شكوكهِ وشبههِ الى حدّ ان باتت غول بقطنهِ وكابوس احلامهِ ولم تلبث طويلاً ان لبست مجالاً للصوفية في صدرهِ

فوائد في اللغة

« القعود هو لانتقال من علوّ الى سفل ولهذا يقال لمن أصيب برجليهِ مقعد . والجلوس هو الانتقال من سفل الى علو . والعرب تقول للقائم اقعد وللنائم او الساجد اجلس . ويقولون

(١) انظر تاريخ الآداب العربية للمؤلف

(٢) وفي الكشكول ما يؤيد ذلك . فقد جاء فيهِ « ونسبتهُ الى غزالة قرية من قرى طوس » على ان ابن خلكان يورد الروايتين ولا يرجح واحدة على الاخرى . فقد جاء فيهِ ما نصهُ :

« والغزالي بفتح الغين المعجمة وتشديد الزاي المعجمة وبعد الالف لام هذه النسبة الى الغزّال على عادة اهل خوارزم وجرجان فانهم ينسبون الى القصار القصري والى العطار العطاري . وقيل ان الغزالي مخففة نسبة الى غزالة وهي قرية من قرى طوس . وهو خلاف المشهور ولكن هكذا قالهُ السمعاني في كتاب الانساب »

القليل هو معلول فيخطئون لان المعلول هو الذي سقي العَلَل [1] وهو الشرب الثاني . واما المفعول من العلة فهو مُعَلٌّ »

شيء في الفلك

« رأيت في كتاب الفتوحات المكية في الباب التاسع والستين منهُ وهو الباب المعقود لبيان اسرار الصلاة ما يدلُّ بصريحهِ على ان انوار جميع الكواكب مستفادة من نور الشمس . وكذا في كتاب الهياكل للشيخ السهروردي ما يدلُّ على ذلك ذاتهُ قال ان الشمس هي التي تعطي جميع الاجرام ضوأها ولا تأخذ منها . قال المحقق الدواني في شرحهِ لهذا الكلام هذا يدلُّ على ان انوار جميع الكواكب مستفادة من الشمس كما هو مذهب بعض اساطين الحكماء . وجامع الكتاب (اي صاحب الكشكول) يقول هذا هو الحق . وفي المثنوي للعارف الرومي ما يدل على ما ذكرناهُ وانهُ الحق »

وكاتب هذه المقالة يقول ايضاً هذا هو الحق اذا اريد بالاجرام السيارات فقط ولم يرد الثوابت وان علم الفلك الحديث يؤيد علم الهيئة القديم فيهِ . ومما يذكر في هذا الصدد ان فلكيي العرب مثل ابناء شاكر والبتاني وغيرهم عرفوا عن الافلاك اموراً كثيرة يقرُّها علم الفلك الحديث . فقد ذكر عن ابناء شاكر (وكانوا معاصرين للمأمون) ان المأمون قرأ في كتب الفلك القديمة ان محيط كرة الارض اربعة وعشرون الف ميل وطلب منهم تأييد ذلك بالبرهان العملي بقولهِ « اريد منكم ان تباشروا اختبار ذلك بانفسكم حتى تبصر حل يتحرر ام لا » ففعلوا وذلك حديث طويل يطلب في مواطنهِ لتحقق المأمون صحة ما ورد في كتب القدماء عن مقدار دور الارض

وقال المسعودي في كتاب مروج الذهب : وذكر خالد بن عبدالله المروزي وغيرهُ وقد كانوا رصدوا الشمس لامير المؤمنين المأمون في بريه سنجار من بلاد ديار ربيعة ان مقدار درجة واحدة من وجه الارض ٥٦ ميلاً فضربوا مقدار درجة واحدة في ثلثمائة وستين فوجدوا دور منطقة كرة الارض المحيطة بالبر والبحر عشرين الف ميل ومائة وستين ميلاً ثم ضربوا دور الارض في سبعة فاجتمع مائة الف ميل واحد واربعون الف ميل ومائة وعشرون ميلاً فقسموا ذلك على اثنين وعشرين وخرج القسم الذي هو مقدار قطر الارض ستة آلاف واربعمائة واربعة عشر ميلاً ونصف عشر بالتقريب والميل اربعة آلاف ذراع

(١) وضبط المتن علَّ بعد نهلٍ اي شربة ثانية بعد الشربة الاولى التي ازيلت العلة

بالاسود وهي الذراع التي وضعها امير المؤمنين المأمون للشياب ومساحة البناء وقسمة المنازل . والذراع مائة وعشرون اصبعاً »

وجاء في مكان آخر قوله : زعم بطليموس صاحب كتاب المجسطي ان استدارة الارض كلها جبالها و بحارها اربعة وعشرون الف ميل وان قطرها وهو عرضها وعمقها سبعة (١) آلاف وستمائة وستة وثلاثون ميلاً . وان من كان مسكنهُ وسط الارضين وعند خط الاستواء استوت ساعات ليلهِ ونهارهِ ورأى المحورين اعني القطب الشمالي والقطب الجنوبي فاما اهل البلد التي مالت الى ناحية الشمال فانهم يرون القطب الشمالي و بنات نعش (الدب الاكبر) ولا يرون القطب الجنوبي » انتهى

والمعروف الآن ان دور الارض وهو ما يسمَّى بحسب الاصطلاح الحديث محيطها نحو ٢٤٨٥٧ ميلاً وقطرها نحو ٧٩١٢ ميلاً والعرب نقلوا ما تقدم عن اليونان ولكن اقدامهم فكيهم على تأييدهِ عملياً كما ورد في الروايتين المذكورتين آنفاً دليل على انهم قرنوا العلم بالعمل فلم يكونوا مجرَّد نقلة ونسَّاخ بل علماء درسوا وفهموا ولولا ذلك ما استطاعوا البرهان على القضايا النظرية بالعمل

وفي مروج الذهب كثير من الامور الفلكية الصحيحة ولكن كثيراً ما يُحشر بينها تخرصات ليست من علم الفلك في شيء . فبينا تراهُ يخبرك ان اهل النصف الشمالي من كرة الارض يرون القطب الشمالي و بنات نعش ولا يرون القطب الجنوبي وان الكوكب سهيلاً لا يرى بناحية خراسان و يرى في العراق في السنة اياماً اذا به يقول في وصف هذا الكوكب « ولا تقع عين جمل من الجمال عليهِ الاَّ هلك على حسب ما ذكرناهُ وساذكر الناس من العلة في ذلك في موت هذا النوع من الحيوان » . وبينا تراهُ يصف انهاراً سيارة وافريقية وصفاً صادقاً على الاجمال و يسمِّه الجاحظ حيث زعم ان نهر السند من النيل مستدلاً على ذلك بكثرة التماسيح فيهِ ويصحح خطأهُ بقولهِ « اولم يعلم ان نهر السند يخرج من اعالي بلاد السند من ارض القنوج . ارض الكشميرة الخ تراهُ مونسهُ يقع في شرَّ مما وقع الجاحظ فيهِ فقد قال في وصف التمساح « يموت في دوبية تكون في ساحل النيل وجزائرهِ . وذلك ان التمساح لا دبر لهُ (كذا) وما يأكلهُ يكون في بطنهِ دوداً واذا آذاهُ ذلك الدود خرج الى البرّ فاستلقى على قفاهُ فاغراً فاهُ فينقض عليهِ طير الماء فيأكل ما ظهر في جوفهِ من ذلك الدود وتكون تلك الدوبية قد كمنت في الرمل تراعيهِ فتدب الى حلقهِ وتصير في جوفهِ فتخرقهُ وتقتلهُ » الخ

(١) في المطبوع عندنا تسعة والصواب سبعة كما ترى

وهكذا كان علماء النبات والحيوان وغيرهم يفعلون ليصفون هذا النبات وذلك الحيوان ويجيدون في الوصف احياناً ولكنهم يتطرقون من ذلك الى امور تضحك الجاهل فضلاً عن العاقل . فقد قال الدميري في كلامه على الضبع مثلاً «ومن عجيب امرها انها كالارنب تكون سنة ذكراً وسنة انثى فتقع في حالة الذكورة وتلد في حال الانوثة نقلهُ الجاحظ والزمخشري في ربيع الابرار والقزويني في عجائب المخلوقات» الخ ومنهم من قال انها خنثى وانها تتولد من حيوانين مختلفين كالبغل الى غير ذلك من الترهات . ويكفي المحزون ان يفتح كتاباً كحياة الحيوان الكبرى للدميري ويقرأ خواص حيوان من الحيوانات من شعره الى شحمه فرارتو فجلده فاسنانه فدمه فكبده حتى ينتفي حزنهُ وينقلب بكاؤه ضحكاً

التهتك في الادب

«توهمهُ طرفي فآلم خدهُ فصار مكان الوهم من خدهِ ثؤرُ
وصافحهُ كفي فآلم كفهُ فمن صفح كفي في انامل عقربُ
ومرَّ بفكري خاطراً فجرحتهُ وما أرَ خلقاً قطّ يجرحهُ الفكرُ»

رأى صاحب الكشكول ان ينقل هذه الابيات وهذا لهُ ولكنهُ لما شاء التعليق عليها قال «يقال ان هذه الابيات لما بلغت الجاحظ قال ....» ويلي ذلك كلام سقيم ليس من الادب في شيء وهو من قلة الادب كلُّ شيء . ولست ادري ايهما احق بالملام القائل ام الناقل . على ان هذه شنشنة عرفناها من بعض الكتاب . فانك بينما تراهم محلقين في سماء الخيال الصافي والكمالات الصمدانية الخالية من كل شائبة اذا بك تراهم وقد تسفلوا بعد التصعد ودنسوا ذلك الخيال السامي بارجاس هذه الاقوال المخزية . حتى ان ابن الاثير المؤرخ على رزانته وعلى ان ليس في موضوعهِ مجال لامثال هذه المخازي لم يسلم منها . فانهُ عقد فصلاً تاريخيًّا على بني تميم وسجاح وما كان من امر مالك بن نويرة معهم وختمهُ بحكاية رابيات يستحي الخليع ان يتفوه بها . وقد كان تاريخهُ عنها في غناء بل هي منهُ كالكلف في وجه الحسناء .

والعادة عند كتاب الغرب اذا ارادوا اقتباس عبارة لا تدخل الآذان بلا استئذان ان يترجموها الى اللاتينية او اليونانية القديمة فلا يخدشوا بها اذهان الناشئة ولا يطلع عليها الاَّ من يهمهم أن يعرفوها اذ الغاية منها تقرير حقيقة لا التلهّي بنكر القول وفحشهِ

وان لسان المرء ما لم تكن لهُ حصاةٌ على عوراتهِ لدليلُ

والقلم نائب اللسان في دولة الادب

شيء من التشريح والفسيولوجيا

«كل حيوان يتنفس باستنشاق الهواء فهو انما يتنفس من انفهِ فقط الاَّ الانسان فانهُ يتنفس من انفهِ وفيهِ معاً . وسبب ذلك ان الانسان يحتاج الى الكلام بتقطيع حروف مخرج بعضها الالف[1] فيحتاج الى نفوذ الهواء فيهِ . وقد فتح بيطار فم فرس بآلة سدت مخرجهِ فمات على المكان . والانسان اضعف شيئاً من سائر الحيوان فهو يحتال على ادراك الراحة بالتسخين تارة وبالحك وتصغير الاجزاء اخرى . وعند على الانف منفذان دقيقان جداً ينفذان الى داخل العينين بحذاء الانوف وفيهما تنفذ الروائح الحادَّة الى داخل العينين . فلذلك تتضرر العينان برائحة الصنان[2] وتدمع من شم البصل ونحوهِ . ومن هذين المنفذين تنفذ الفضول الغليظة التي في داخل العينين وهي التي تجهد عند الاندفاع بالدموع . واذا حدث لهذين المنفذين انسداد كما في الغرب[3] كثرت الفضول فكثرت امراض العين لذلك »

الصحيح من هذا التشريح ومن هذه الفسيولوجيا قولهُ ان الانسان اضعف شيئاً من سائر الحيوان او بعض سائرهِ ولكن الناس على اختلاف في ذلك فان الهنود الاميركيين يميزون الاشخاص برائحتها الخاصة وهذا نتيجة التربية . والمنفذان المذكوران هما القناتان الانفيتان ووظيفتهما حمل الدموع من العين بعد غسلها ومنعها تنفذ الفضول الغليظة التي في داخل العين كما قال . اما حكاية البيطار والفرس ففيها نظر لان الحيوان يستطيع التنفس من فيهِ كالانسان ولو لم تكن وظيفة الفم الاصلية التنفس . ألم تر الكلب والهر يتشاءبان وتاؤبهما يا بصحبهُ من شهيق وزفير انما يكون بطريق الفم . او لم تسمع الحمار ينهق بصوتهِ المنكر وليس الصفير الذي يصحب ذلك النهيق سوى الصوت الحادث من دخول الهواء الى انفهِ وفيهِ

ومن غريب توارد التعابير قولهُ « مات على المكان » وهي مثل قولهم بالانكليزية died on the spot ومعناها حالاً او في ارضهِ كما تقول العامة . فكأنها مترجمة عن الانكليزية او التعبير الانكليزي مقتبس من العربية

وامثال هذا التعبير ليست قليلة فمنها قولهم اخذ على نفسهِ وفي الانكليزية to take upon one's self . ومنها قولهم حفنة من الرجال وفي الانكليزية a handful of men فقد نقل عن ابي بكر قولهُ « وما نحن الاَّ حفنة من حفنات الله » اي شيء يسير

(١) هكذا وردت في الصواب الالف (٢) زفر الابط (٣) ورم الموق

شيء من الفلسفة الطبيعية

« الخلاف مشهور في ان رؤية الوجه مثلاً في الصقيل هل هو بالانعكاس عنهُ او بالانطباع فيهِ . والادلة من الجانبين لا تكاد تسلم من خدش . والجامع الكتاب دليل على انهُ بالانطباع لا بالانعكاس وهو ان التجربة شاهد برؤية المستوي في المرآة معكوساً والمعكوس مستوياً . مثلاً الكتابة ترى في المرآة معكوسة ونقش الخاتم (الذي يراد للامضاء) يرى مستوياً وهذا يعطي الانطباع كما ترسم الكتابة من ورقة على اخرى فترى معكوسة ويختم بالخاتم فيرى الختم مستوياً . ولو كان بالانعكاس لرؤي على ما هو عليهِ اذ الحرفي على القول بالانعكاس هو ذلك الشيء بعينهِ الا ان الرائي يتوهم انهُ يراهُ مقابلاً كما هو المعتاد تأمل »

وكتب اللغة لا تنص على الانعكاس والانطباع والفرق بينهما فالبحث في ذلك من المباحث الجدلية العقيمة التي لا ينفع منها كبحث علماء القرون الوسطى في كم من الملائكة يستطيعون الرقص على رأس الابرة . واذا اوقف حمار بين حزمتي حشيش وكان على بعد واحد منهما فالى ايتهما يميل وقس على ذلك . والمعروف عندنا ان صورة الاشباح تنعكس عن المرآة معكوسة وتنطبع على لوحة المصوّر الفوتغرافي معكوسة مقلوبة وعليهِ سمّوا هذا اللوح بالسلبي ثم تطبع منهُ على الورق فتستوي وهي الصورة الايجابية . ومثل ذلك يحصل في العين عند الابصار فان صورة المرئيات تنطبع عليها معكوسة مقلوبة عاليها سافلها ولكنها تراها مستوية اما بحكم العادة واما لان العصب البصري يتأثر باشعة النور وباتجاهها اليهِ فيحسها في النقط التي تجمع فيها لو أخرجت على استقامتها

القروي الاديب

« قال الحجاج عند موتهِ انهم اغفرلي فانهم يقولون انك لا تغفر لي . وكان عمر بن عبد العزيز تعجبهُ هذه الكلمة ويضبطهُ عليها وقد حكي ذلك للحسن البصري قال أوَ قالها . فقيل نعم . فقال حسن »

والحجاج كما جاء في مقال سابق كان عامل عبد الملك بن مروان على العراق ولد بزّ اهل عصرهِ في فصاحتهِ وسياستهِ وحلمهِ . اما فصاحتهُ فقد قال ابو عمرو بن العلاء « ما رأيت افصح من الحسن البصري ومن الحجاج بن يوسف الثقفي » . وقال آخر ان الحجاج افصح قروي[1] سمعتهُ . واما سياستهُ فالحكايات عنها كثيرة ولا محل لها هنا فلنتراجع في

(١) يراد بالقروي هنا وضيع الاصل كما تُرجمت كلمة plebeian الانجليزية

اما كتبها كالعقد الفريد لابن عبد ربه والبيان والتبيين للجاحظ . واما قلمهُ فيكفي في الدلالة عليهِ قولهم انهُ كان في سجون العراق عند موتهِ نحو ستة وعشرين الف نسمة

واقل ما قالوا فيهِ قول عمر بن عبد العزيز « لو جاءت كل امة بمنافقيها وجئنا بالحجاج لفضلناهم »

وقول الشعبي — لمن قال لهُ يزعم الناس ان الحجاج مؤمن — « مؤمن بالجبت والطاغوت[1] كافر بالله »

ويقال ان عبد الملك بن مروان قال للحجاج صف لي عيوبك . قال اعفني يا امير المؤمنين . قال لا بد ان تقول . قال انا لجرج حسود حقود . قال ما في ابليس شر من هذا »

اقول ان قول الحجاج قولهُ المذكورة آنفاً يدل على عظم إيمانهِ برحمة الله وسعة غفرانهِ والايمان باب النجاة . وهذا ما جعل عمر بن عبد العزيز يغبطهُ عليها بعد ان وصفهُ بالنفاق والحسن البصري يرجي ان يكون قالها

وقد ذكر ابن خلكان انهُ كان في مرض موتهِ يردد هذين البيتين

يارب قد حلف الاعداء واجتهدوا أيمانهم انني من ساكني النار
ايحلفون على عمياء ويحهمُ ما ظنهم بعظيم العفو غفار

وكتب الى الوليد بن عبد الملك كتاباً يخبرهُ فيهِ بمرضهِ وقال في آخرهِ :

اذا ما لقيت الله عني راضياً فان سرور النفس فيما هنالكِ
فحسبي حياة الله من كل ميتٍ وحسبي بقاء الله من كل هالكِ
لقد ذاق حتى الموت من كان قبلكِ ونحن نذوق الموت من بعد ذلكِ

والظاهر ان « السنة المحرقين » من علماء الغرب يرون ان ما ابدى الحجاج من البراعة في القيادة والمقدرة في الحكم يشفع فيما اجترح من السيئات وفيما ركب من الظلم . فهم لذلك يميلون الى الاغماض والتجاوز عن تلك السيئات ضاربين عليها حجباً من الاعذار صفيقة كانت او خفيفة شفافة . ومنهم المستشرق الهولندي جان دي جيجي . فقد كتبهُ السيكلوبيديا البريطانية قبل وفاتهِ بسنة ان يكتب لها مقالة في تاريخ الخلافة عند العرب لتنشرها في طبعتها الحادية عشرة (الاخيرة) فكتب مقالة ملأت ثلاثين صفحة . ومما جاء فيها عند ختام الكلام على الحجاج قولهُ :

---

(١) الجبت والطاغوت اسما صنمين في الاشهر

« وقلما استهدف انسان للتقربات من همز ولمز استهداف هذا الحاكم الشرقي العظيم لها، فقد كان والحق يقال رجلاً ذا اقتدار عجيب فامضى المهمة التي انتدب لها بعزم وحزم. فهو الذي خمد فتنة ابن الاشعث بحسن ثباته ورباطة جأشه فلما اعيد الامن الى نصابه ظهرت كفاءته على اتم مجاليها في كل وجهة ولّيها. فمن احياء موات الارض (في العراق) الى ترقية الزراعة بكل وسيلة وخصوصاً حفر الترع الى تنظيم الضرائب وجباية الاعشار مما كان فيه مبتكراً لا مقتبساً. واظهر حكمة فائقة في اختيار عماله وبلغ من هيبته ورهبة اسمه ان استتب النظام حتى في البادية فامن الناس فيها على ارواحهم ومتاعهم. ولا ريب ان معظم السبب في انتصاراته الحربية المتوالية شدة عنايته « بمهمات » جيشه من سلاح ومؤونة. ولقد كان الحجاج مسلماً صادق الاسلام ولكن هذا لم يمنعه من مهاجمة ابن الزبير وحصر مكة والايقاع بالعصاة من الشهداء وابناء الصحابيين » (نقيب)

استعمار السوريين بين العهدين

تمهيد

للسوري القديم — الفينيقي — في عالم الاستعمار والمهاجرة سفر مكتوب بماء الذهب على صفحات البحار ملؤه طلب العلاء ولو باقتحام الاخطار. وللسوري الحديث الذي ضرب في بلاد الله طولاً وعرضاً شمالاً وجنوباً شرقاً وغرباً سفر آخر خليق به كسابيل الفينيقيين اساد البحار. ولكن بين السفرين صفحة غير مكتوبة عن سوريي الاجيال القريبة من العهد المسيحي والاجيال الوسطى. ولدي البحث يتبين ان تلك الصفحة حلقة متصلة لا منفصلة في سلسلة المهاجرة التي ابتدأت بالفينيقيين وانتهت بمهاجري اليوم وان ذلك السوري ثم في هذا السبيل ما اورثه له السلف وشرع بما ورثه عنه الخلف

ولما كان تاريخ المهاجرة السورية بين عهد الفينيقيين — وامرهم معروف — وعهدنا الحاضر الذي لا يحتاج الى تعريف نسياً منسياً وصفحة مطوية كان لا بد من الاكتفاء بذكر حوادث متقطعة غير متصلة عثرنا عليها هنا وهناك. وهي القليل الذي يدل على الكثير والتي يجب اعتبارها ازهاراً التقاها اليد التاريخ من فوق حائط تخيل ما يحيط به فجاءت خير دليل على ان هناك بستاناً كثير الرياحين